ندوة مجلة الآداب

«الآداب: أطياف وحقائق

نبيل سليمان

إذا كانت اللّوحةُ هي الفنّ والفنّان، والكتاب هو الكاتب والكتابة، فالمجلّة أيضاً هي الكتّاب والكتابة، وهاهنا تستوي الحياة والموت. والتكريم فيهما هو لحظة أو تجلّ من لحظات أو تجلّيات حضور الإبداع الدائم وفعله المستمرّ. لذلك لم أجد ما أعنون به هذه المداخلة غير عبارة الأطياف والحقائق الّتي عنونت بها ما كتبته عن سعيد حورانيّة في أمس قريب.

ولقد قُيِّضَ لي أن أشارك في تونس أواخر العام الماضي في جلسة غير رسميّة تخصّ قرار الاتحاد العام للأدباء العرب بتكريم مجلّة **الآداب**، وكان يحيى يخلف عائداً لتوّه من دورة للأمانة العامّة في عمّان. كنّا، سهيل إدريس والياس خوري وأنا، من بين العائدين من الملتقى الرّوائي العربي الثاني في قابس، وضمنه كان تكريم إدوار الخرّاط. مع يحيى يخلف في ذلك الصّباح في أوتيل عمران، وفي الوقت القصير الّذي تبلورت خلاله محاور وأسماء، كانت أطياف الثقافة العربيّة وأطيافها في النّصف الثاني من هذا القرن تتخلّق أمامي في مجلّة **الآداب** وحولها. ولعلّ ذلك ما جعلني ألحّ على الآخرين بأن يكون بين المشاركين في التّكريم مَنْ هم مِنْ غير أبناء المجلّة: ممّن لم ينشأوا فيها وليسوا من كتّابها.. وأنا واحد من هؤلاء؛ فالمجلّة مجلّة هؤلاء أيضاً، وبخاصّة في هذه الآونة، حيث كانت **للآداب** قيامة جديدة في زمن الموات العربي العميم الجديد.

ولقد يحقّ **للآداب** في افتتاحيّة عددها الأوّل لعامها الثاني والأربعين، عام التكريم هذا، أن تجأر بين تكريم مجلّة وهوان أمّة، وتكتب في لوعة خنقتْ فيها الفرحَ اللّوعةُ والهمُوم: «هل تكريم هذه المجلّة تكريمٌ لميت، أم هو من باب التعويض عن خسارة المثقّفين العرب لآمالهم الكبرى؟». بَل يحقّ لها أن تصرخ: «لا يا سادة، لم نمت، ونرفض أن نكون مشجباً لآمالكم الضّائعة»!

أمّا نحن فلنا أن نجأر أنّ مثل هذا التكريم هو بعضٌ مِنْ دَيْنٍ مستحَقّ لـ **الآداب** في أعناقنا، بعضٌ من واجب قديم وقادم، كما هو حاجة فرديّة وجماعيّة تؤكّد القيَم في زمن خلخلة القيم وهوانها. إنّه بعضٌ من التربية المستمرّة الّتي نحتاج إليها، والّتي ينبغي أن نورثها.

الذبيحة تجأر

في افتتاحيّة العدد الأوّل للسّنة الثانية عشرة، أي منذ ثلاثين سنة، تساءلتِ المجلّةُ عن الدّور الّذي قامت به في حياتنا الحديثة. وادّعتْ في إجابتها أنّه وعيُ دورِ الأدب في النهضة القوميّة الحاضرة، مخالفةً في ذلك شقيقاتها اللّبنانيّات الّتي حاربت النّزعة القوميّة في الأدب، فيما تبدو النزعة القوميّة السمة الرئيسيّة لتاريخنا الحاضر.

وتعلّل المجلّة في افتتاحيّتها المذكورة استجابةَ القارئ لها بإلحاحها على الجانب القومي الملتزم وبعكسها الهموم والشّواغل الموضوعيّة والشكليّة الّتي يحملها النتاجُ المعاصر.

بعد خمسة عشر عاماً من ذلك، وفي مقام مماثل، تؤكّد المجلّة على الرّسالة الفكريّة القوميّة التقدّميّة وتحدّد من بين أسباب استمرارها «أنّ المدّ القومي الّذي شهدته الخمسينات والستينات، والّذي عبّرت عنه **الآداب** بأقلام طائفة من المفكّرين العروبيين القوميين، ينتفض الآن من جديد، بعد سلسلة من النكسات والمبادرات الاستسلاميّة، ويتّخذ له مساراً جديداً على لقاء الوحدة المرتقبة بين دمشق وبغداد»(١).

لِـ «الآداب» قيامةٌ جديدة في زمن الموات العربي العميم الجديد!

تأخذ بالمرء هذه النبرةُ العالية من الثّقة على الرّغم ممّا اعتور دنيا العرب ما بين مطلع الخمسينات ـ ظهور المجلّة ـ وأواخر السبعينات، حين كُتبت تلك السّطور. غير أنّ المجلّة كانت تتجرّع الغصّة كلّ حين كالعربي الّذي نالته الصروفُ المعروفة أكثر فأكثر كلّما تقدّم العمر. وأذكر من ذلك ما جاء في باب شهريات قبل سبع سنوات من تلك الوحدة المرتقبة بين دمشق وبغداد: «إنّ الحقيقة لا تقال في دنيا العرب. ومن يجرؤ على قولها عرضةٌ للسّجن والقمع والإرهاب. حسبي إذن هذا الشّهر أن أنظر إلى جثّة الحقيقة ملقاة عند الأقدام نازفة دامية»(٢).

أمّا اليوم، وفي ساعة التّكريم، فتبدو الغصّة كأنّما أنشبت بالعنق وبالنّفس الأخير، والمجلّة تصرخ مؤكّدة مواصلةَ سيرها كلّما عظم اليأس: «حتّى نرى ما نريد أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً». وما تريد **الآداب** اليوم ـ كما تتابع محدّدةً ـ «ليس تكريماً ولا تأبيناً ولا معاركَ نخسر فيها جميعاً ونبدّد طاقاتنا هدراً، بل هو أن تبقى للمثقّف العربي

(١) **الآداب** السنة ٢٧، العدد ١، عام ١٩٧٩ ومن أسباب الاستمرار الأخرى تذكر الافتتاحيّة: الاستقلال الفكري، التمويل الذّاتي، القيام بدور الشّاهد والكاشف للمواهب الجديدة، الوقوف في وجه التيّارات المشبوهة

(٢) **الآداب**، السنة ٢٠، العدد ١٠، العام ١٩٧٢.

وللمواطن العربي: «حرّيّةُ أن يقول لا»، في فسحة من الحرّيّة «بقدر صفحة أو ثمانين صفحة...»! أليس هذا بطمع ما بعده طمع في النهاية العربيّة للقرن العشرين؟!

ولا تريد **الآداب** ـ في هذا المقام ـ أن تحارب الأنظمة العربيّة. وهي بالتأكيد تنطق بنبض كثيرين حين تتابع: «بل نحن أعجز من أن نرفع أعيننا في وجه مسلّح أو حاكم. حسبنا أن نكون معارضة بنّاءة، معارضة موجّهة ضدّ إسرائيل والإمبرياليّة بالدّرجة الأولى... معارضة داعمة لجهد عربي موحّد وطاقة عربيّة رسميّة وشعبيّة واحدة. فنحن يا سادة نكره الانتحار، ونكره أن نتعرّض للتهديدات...».

أليست هذه بالغصّة الكبرى الّتي تتقمّص الإعلان وتتدرّع بالثّقة، ويزوغ بها الماضي والحاضرُ والمستقبل والهزيمة والحلم ـ إنْ لم أقُلْ: الحياة والموت ـ شأنَ أيّة ذبيحة منّا؟

لحظتان للشأن القومي

في مثل هذا المقام الّذي لا تحتاج فيه **الآداب** إلى الخطاب، قد يكون الأفضل ـ وهو الأصعب بالتأكيد ـ أن يغامر المرءُ بالدّخول إلى عالمها والقراءة فيه[٣]. ولئن كانت المواد الإبداعيّة والدراسات المؤلّفة والمترجمة والسجالات والمراجعات، ممّا قدّمته المجلّة منذ مطلع الخمسينات، قد آلت في جلّها إلى كتب أصحابها وقُرئت في الغالب بعيداً عن حضنها الأوّل، فما الّذي يمكن أن يُقرأ الآن؟ أهو الأعداد الأخيرة مثلاً، حيث قد لا تكون الفسحة الزمنيّة يسّرتْ بعدُ لانتقالِ الموادّ من الحضن الأوّل إلى حضن آخر؟ أم هي القضايا الّتي اشتغلت عليها المجلّة ومازالت، ممّا رسم تاريخنا خلال نصف القرن المنصرم، ويرسم من مشارف القرن الحادي والعشرين ما يرسم؟

بالنّسبة لي ها هنا جاء اختياري. وبالضّبط في القضيّة الّتي ارتُهنت المجلّةُ لها منذ عددها الأوّل؛ أعني: الشّأن القومي العربي، وبتحديد أكبر: الصّراع الثقافي، من بين أوجه الصّراع العربي الإسرائيلي، وهو ما تتمدّد مفرداته: من الغزو الثّقافي إلى التطبيع الثّقافي... وما بين أمس قريب ـ قرب قيام إسرائيل في فلسطين أو قرب هزيمة حزيران ١٩٦٧.. ـ وبين اليوم، يوم غزّة وأريحا أو يوم السّلام الأمريكي الإسرائيلي العربي الرّسمي.

الغزو الثقافي في ١٩٧٢

في شباط ـ فبراير من عام ١٩٧٢ كانت ندوة الشّهر الّتي قدّمتها **الآداب** هي ندوة «الغزو الثّقافي» الّتي أعدّتها وقدّمتها إذاعة صوت الجماهير العراقيّة في بغداد، أثناء وجود المنتدين في العراق للمشاركة في مهرجان أبي تمّام بالموصل. والمنتدون هم: حميد سعيد ومحمّد عفيفي مطر وسامي خشبة وصبري حافظ وعبد الوهاب البياتي الّذي أدار النّدوة[٤]، وحدّد موضوعها في البداية بـ:

١ ـ نشاط المؤسّسات الثقافيّة الاستعماريّة الأجنبيّة في البلاد العربيّة، ومحاولاتها للغزو الثّقافي.

٢ ـ تحديد محاولة المساس بالثّقافات الوطنيّة في بلدان العالم الثالث بشكل خاصّ.

ـ تحديد عبارة «الغزو الثّقافي» الّتي يستخدمها بعض الرجعيين.

وإذا كنّا سنتوقّف عند النقطة الأخيرة، فلأنّ النّدوة كانت موئل ما سبقها، سواء في تجلّياتها أم في مواجهتها.

أ ـ التجلّيات

ليس الغزو الثّقافي كما حدّده سامي خشبة بإصدار المجلّات أو خلق المنابر المتعدّدة، وليس بترجمة الأعمال الأدبيّة، بل إنّ هذه الترجمة لكلّ التيّارات مطلوبة كي لا نتخلّف عن العصر، كما يؤكّد. وهكذا فبعد أن يعرّفه بما ليس هو، يحدّده بإعادة تفسير ثقافتنا والثّقافات العالميّة من وجهات نظر تحكم على تراثنا الثقافي بأنّه مصدر لتخلّفنا، أو بأنّه أحد المعوّقات الّتي تمنعنا من الانطلاق الحضاري نحو المستقبل. والغزو الثّقافي ـ بحسب خشبة ـ هو أيضاً تصوير التيّارات الثوريّة في الفكر العربي والثّقافة العربيّة على أنّها تيّارات وافدة وغير أصيلة؛ كما أنّه تصوير جوانب معيّنة من الثّقافة العالميّة باعتبارها وجهها الوحيد، ويضرب مثلاً بمسرح العبث، وبتجربة معرض الشّعر المعيّن أو الشّعر المحدّد الّتي أقيمت في المعهد الثقافي الألماني الغربي آنئذ، حيث الشّعر أصوات لا معنى لها، ومجرّد ترتيبات صوتيّة تؤدّي إلى إحساس نغمي مجرّد.

أمّا عبد الوهاب البيّاتي فيحدّد الغزو الثّقافي بأنّه توليد مركبات النّقص عند الأدباء الشباب عبر الأساليب اللّيبراليّة. كما أنّه تصوير الأدب الثّوري والأدب القومي والأدب الوطني بوصفها آداباً لم تعد تماشي أدب العصر، وآداباً هامشيّة في تيّار الأدب العالمي. ويذكر دعوة بعض المجلّات إلى إلغاء المضمون في بعض الأحيان، ومهاجمة الجديد الثّوري الحقيقي من خلال تأكيد المهاجم ـ وهو ما يسمّيه بالرّجعيّة الجديدة ـ على جديده الزّائف.

ويطوّر صبري حافظ في تحديده للغزو الثّقافي إشارة البياتي إلى اللّبراليّة، وينيرها أيضاً، حين يلاحظ محاولة الاستعمار في السنوات الأخيرة[٥]، وبإزاء المدّ الثّوري المتحوّل صوب الاشتراكيّة، الاستفادةَ من أخطاء بعض الأنظمة العربيّة، واتّخاذ اللّبراليّة واجهةً لنفث السّموم. وهكذا تكون اللّيبراليّة الّتي تبدو فردوساً في الرّاهن العربي، ويبدو الحوار الّذي هو من أنبل وأشرف الشّعارات، وسيلتين للغزو الثقافي. فخلف الحوار اللّيبرالي تقوم وجهة النّظر الواحدة. ويضرب حافظ هنا مثلاً بتجربة مجلّة **حوار** وشقيقاتها من خلال المنظّمة

---

(٣) لقد سبق أن عشت مع **الآداب** مثل هذه المغامرة في بعض مواطن كتابي: **النّقد الأدبي في سورية**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٠، انظر خاصّة ص ١٢٥ ـ ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ٢٢٥ ـ ٢٣٢ ـ ٢٤٠ ـ ٢٦٢ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٦ ـ ٢٩٨...

(٤) ٤ ـ السنة ٢٠، العدد ٢.

(٥) الندوة كما ذكرنا نشرت في شباط ـ فبراير ١٩٧٢.

العالميّة لحرّيّة الثّقافة المرتبطة بالمخابرات المركزيّة الأمريكيّة؛ كذلك يمثّل بتجربة مؤسّسة فرانكلين. وينبّه صبري حافظ إلى النّهب الحضاري الّذي مارسه الاستعمار مذكّراً بذخائر متاحف فرنسا وبريطانيا وأمريكا ـ وهو ما ساهم في الصياغة الثقافيّة للمواطن وللفنّان، مقابل حرماننا من ذلك. ويعدّ أخيراً، من تجلّيّات الغزو الثقافي، الفصل بين الشّكل والمضمون كمدخل تمهيدي لتكريس الاجتزاء والفصل في مجالات أخرى. وهذا ما كان حميد سعيد قد عبّر عنه بشكل آخر حين ذكر ما شرعت له بعض المجلّات في أواخر الخمسينات، من توكيد على الشّكل والدّعوة إلى عدم الاهتمام بما يحمله.

أمّا التجلّيّات الأخرى الّتي شخّصها حميد سعيد للغزو الثّقافي، فقد جاءت في:

ـ استغلال أسماء معيّنة وشراء بعض المبدعين.

ـ خلق تيّارات ثقافيّة مرتبطة بثقافات استعماريّة.

ـ التأكيد من خلال شخص بعينه على تيّار بعينه.

ـ نقل قيم المجتمعات والحضارة الغربيّة إلينا، فيما تلك المجتمعات تعاني الانهيار ومهدّدة داخليّاً، بينما مجتمعاتنا مهدّدة خارجيّاً.

ـ طرح الثّورة بدون تحديد ملامحها، وعلى نحو تبدو دفقة ثورة تجريديّة وميتافزيقيّة.

ـ طرح مواقف ثوريّة متعدّدة، وبالتالي خلق صراع داخل معسكر الثّورة، بدون التعرّض إلى المعسكر الرّجعي أو المعسكرات المشبوهة.

ـ المحاولات الرّجعيّة الجديدة بلبوس تقدّمي في الشّكل أو المضمون.

أمّا محمّد عفيفي مطر فرأى الغزو الثّقافي في محاولة عزلنا عن الحياة الثقافيّة العالميّة والتّراث العالمي، وفي تسويد ثقافة معيّنة لا تجعلنا نتبنّى وجهة نظر شاملة في الحياة، أو لا تجعلنا نتبنّى ما يساعدنا على تكوين نظريّة شاملة للحياة العربيّة، وتملأ بالمقابل عقليّتَنا بتصوّرات كاذبة عن العلم أو عن أنفسنا.

ب ـ المواجهة

وفيما يواجَهُ به هذا الغزوُ يلحُّ سامي خشبة، ويؤيّده الآخرون، على وحدة المثقّفين الثوريين العرب ابتداء من اللّقاءات الشخصيّة إلى الكتابة والقراءة في مختلف المنابر... كما يلحّ صبري حافظ، ويؤيّده الآخرون، على ألاّ تكون المصادرة سبيلاً، وعلى أن يتحلّى المثقّفون الثوريّون ـ وهم يكتشفون سمات العقليّة الخاصّة والمميّزة لنا ـ بانفتاح واسع جدّاً على كلّ الاتّجاهات الثوريّة المعاصرة. ويضيف محمّد عفيفي مطر إلى ذلك الانفتاح على كافة الاتّجاهات التّاريخيّة والحديثة، ضرورة نقل أهمّ ما في التراث العالمي، وكشف أهمّ ما في تراثنا. ويحذّر مطر من أن تكون الغيرة على الثّورة ضدّ الثّورة، فتوقعنا في مزالق الخوف من كلّ ما هو جديد، ويقول: «لابدّ أن تكون الحرّيّة والحوار الحقيقي هما رائدنا الأوّل. وهدفنا الأساسي هو الوصول إلى الحقيقة من خلال النقاش الحرّ والمفتوح، فلا ندين شيئاً إلاّ بأن نفضحه فضحاً حقيقيّاً، وليس باستخدام أداة السّلطة. فالفكر لا يقهره سوى الفكر وحده».

* * *

لأنّ ما تقدّم كان في ندوة، فقد قمنا بتنسيقه على هذا النّحو. غير أنّ هذا الّذي تقدّم كان منذ أكثر من عقدين؛ حدث قبل أن يعبّد السّادات الطريقَ إلى القدس وتقوم كامب ديفيد ومفاوضات مدريد وما تلاها وصولاً إلى اتفاق غزّة ـ أريحا.

وعلى الرّغم من أنّ ما تقدّم ليس دراسات أو أبحاثاً في الصّراع الثّقافي أو الغزو الثقافي، إلاّ أنّ جلاءه اليوم يكشف لنا عن شواغل وتعبير عيّنة هامّة، مازال شعراؤها ونقّادها يمارسون حضوراً مهمّاً في السّاحة الثقافيّة، فضلاً عن مكانتهم المتميّزة قبل النّدوة وخلال العقدين المنصرمين على انعقادها. وهكذا نستذكر كثيراً من لغة ١٩٧٢ (المثقّف الثّوري ـ الرّجعيّة ـ المعسكر المشبوه ـ الاستعمار ـ النضال...) ممّا غُيّب ومُحي ولايزال يجري توكيدُ تغييبه ومحوه وأمّحائه، بفضل ما جادت به علينا صروف العقدين الماضيين، وما جدنا به على أنفسنا أيضاً. وهكذا يلاحظ المرء وجود صوت كان يعد من الغزو الثّقافي تعدُّد الأصوات في «المعسكر الثّوري»، وصوت كان لا يرى غير التّهديدات الخارجيّة لمجتمعاتنا، حتّى لكأنّها لا تحمل في أحشائها أيّة تهديدات «داخليّة».

هكذا يلاحظ المرء أيضاً الاهتمام بالتّراث، والتّوكيد على التواصل معه، شأن التّواصل مع الثقافة العالميّة دون الانخداع بالأحاديّة المقنّعة باللّبراليّة أو الحداثة أو الحضارة. وكما ذكر سامي خشبة مثال مسرح العبث، أو مثال معرض الشعر المعيّن أو الشّعر المحدّد، فإنّ بوسع المرء أن يذكر ممّا تلا مثالَ البنيويّة مع التوكيد الشّديد على الطارئ الأكبر، وهو أنّنا نحنُ من يعلن فضاءَه مستباحاً قبل أن يستبيحه الآخر، وبعد ذلك وأثناءه؛ والأمر على هذا المستوى في النّقد أو الشّعر أو المسرح أهون ألف مرّة في مستويات ومستويات.

ومنذ بات كامب ديفيد من حقائق حياتنا الطّريفة ـ موتنا الطريف، منذ بات المستبدّ العربي والأمريكي والصّهيوني يعزفون معزوفة سلامهم والحضارة والثقافة المرتبطتين بهذا السّلام، اشتغل كثيرون ممّن لم تسحرهم المعزوفةُ على التطبيع الثقافي والغزو الثّقافي وسائر المفردات الثقافيّة للصراع العربي الإسرائيلي. وكانت، ولمّاتزلْ، لمصر في هذا الاشتغال تجربةٌ ثمينة، معقّدة مريرة، غير أنّ الفورة بدأت فلسطينيّاً وأردنيّاً وبأقلّ من ذلك سوريّاً وعربيّاً، بعد حرب الخليج وإطلاق معزوفة «سلامهم». فكيف بدا ذلك في مجلّة الآداب؟ كيف

تجلّت هذه اللّحظة الثانية «الطازجة» للشأن القومي في مجلّة **الآداب**؟

* * *

الغزو الثّقافي ١٩٩٤

في العدد ١ ـ ٢ من **الآداب** لهذا العام قدّم ابراهيم محمود «ملاحظات حول مفهوم الغزو الثّقافي عربيّاً»، وبدأها بالسّؤال عمّا يعنيه هذا المفهوم، مستعرضاً حدوده كتعبير عن حالة لاتكافؤيّة بين ثقافتين، تحاول القويّة منهما خلخلةَ بنى ثقافة مجتمع آخر... وينتقل الكاتب من ذلك إلى تحديد الغزو الثقافي في الأدبيّات الفكريّة العربيّة المنمّطة، فإذا به:

* غزو يطول الأدب في هويّته وأشكاله التعبيريّة.

* غزو يخترق حقول الفكر ليهيكلها بأساليب لفظيّة وبلاغيّة فارغة من المضمون.

* غزو يخترق الفنون ليجرّدها من كلّ معنى قيمي.

* غزو يمحو العمق الإنساني من التواصل الاجتماعي.

أمّا أشكال هذا الغزو فقد رسمتها تلك الأدبيّاتُ: من غرب لشرق بإطلاق (الخطاب القومي)، أو من غرب مسيحي إلى شرق إسلامي (الخطاب الديني)، أو من غرب أمبريالي إلى مجتمعات متخلّفة (الخطاب الاشتراكي أو الشيوعي أو الماركسي). ويخلص الكاتب إلى أنَّ مفهوم الغزو الثّقافي يظلّ ـ والأمر كذلك ـ شبحاً يكشف عن فقر في المفاهيم المتداولة وعن عتوّ الإيديولوجيّة. أمّا المفهوم بحدّ ذاته فهو بحسب الكاتب ضالٌّ ومضلّ: فمن مفردة الغزو يأتي المفهوم العسكري التسلّطي العنفي والتصوّر المؤدلج؛ ومن مفردة الثّقافي تأتي علاقات قيميّة وأفكار اجتماعيّة غير قارة، وتأتي تواريخ عديدة تتصارع وعلاقات تتّسم بالتوتّر.

والغزو الثّقافي إذن ـ بحسب محمود ـ تعبير يحوّل الثقافة إلى بُعْد واحد فقير مقفر خالٍ من النقائض والتناقضات، وهذا المفهوم يحيل ما هو راهن ومعيش وحاضر إلى ما هو غائب، وإلى صنف تآمري، حيث الغريب دائماً خارجي، والمرفوض ينتمي إلى الخارج المشبوه. ويلحّ الكاتب هنا على أنَّ الثقافة رغم خصوصيّتها لا تعرف حدوداً، وهي كونيّة الطّابع؛ فلا ثقافة مغلقة على نفسها، وعظمةُ كلّ ثقافة تكمن في انفتاحها على غيرها. إنَّ الثقافة أقوى من كلّ حالة انفصال مصطنعة، وطهرانيّة الثّقافة وعذريّتها هما من قبيل التقوى المزيّفة.

يتمحور الغزو الثقافي، كما شخصّه الكاتب في الأدبيّات الفكريّة العربيّة المعنيّة، في ثنائيّة الشّكل والمضمون ـ دون أن ننسى التّواصل الاجتماعي ـ. ويحيل هذا التشخيص، وبإيقاع السنين الفاصلة عن الندوة الّتي رأيناها في الفقرة السابقة، على مسألة الحداثة في الآداب والفنون والفكر؛ وباستطاعة المرء أن يطبّق هذا على الحداثة في الأساليب والمناهج.

بالمقابل تحيل أشكال الغزو الثقافي كما قرأها الكاتب، على لحظة أبكر وأبسط. ذلك أنّه، وبإيقاع العقدين المنصرمين خاصّة، انضاف شكلُ الغزو الصهيوني الّذي يجد موقعه في الترسيمة السّابقة في: القومي والديني والطبقي. كما لم يعد للأشكال نقاؤها؛ فقد تداخلت وتراكبت، بل وتماهت وتخلّقت، ولا ينقض ذلك أن تلحظ، ومن على السّطح، الأصوليّة الإسلاميّة.

ولئن كان المرء يتّفق بعامّة مع الكاتب على ما قرأ في راهن مفهوم الغزو الثقافي من شبحيّة وعتوّ أيديولوجي، فإنَّ السّؤال ينبثق عن حقيقة إسقاط المفهوم عبر تشخيص التناقض بين مفردتيه ـ جناحيه. ولئن كان اللّبوس العسكري والعنفي للمفردة الأولى (الغزو) منفراً، فإنَّ هذا لا يخفي الوجه العنفي للثقافة الأوروبيّة أو الأميركيّة أو الصهيونيّة إزاءنا وإزاء العديد من ثقافات الشّعوب، منذ بداية الحكاية الأوروبيّة الأميركيّة الاستعماريّة، وانتهاء بالمستشرق فلان الفلاني الّذي تناسل في المكاتب العسكريّة الاستعماريّة.

ها هنا نأتي إلى ذلك اللّبوس الإنساني الإرادي (أم نقول الإنسانوي الإرادوي) الّذي جعله الكاتب للثقافة، فإذا بها تلتبس باللّاتاريخيّة. وبالتالي ليس للمرء أن يقول بثقافة قامعة، أو بثقافة الاستبداد، أو بثقافة استعماريّة، أو بثقافة عنصريّة، أو بكوابح لكونيّة ثقافة ما في صميمها أو من خارجها.

من الحقّ أنَّ عظمة الثقافة هي في انفتاحها، وأنَّ الخصوصيّة الثقافيّة ليست حدوداً، وأنَّ العذريّة الثقافيّة وهم. ولكن من الحقّ أيضاً أنَّ ثمّة ثقافات منغلقة إلى حدّ أو حدود بطبيعتها، وثمّة ثقافات أقصر تصطنع الانفصال إلى حدّ أو حدود، وتفلح فيما تصطنع إلى حدّ أو حدود! ولعلّ متابعة الكاتب فيما أرسل في «الآخر» أن تضيء هذه المجادلة.

فالكاتب ينفي أن يكون ثمّة آخر على صعيد التواصل الثقافي بين الشّعوب. والآخر هنا هو الواقع المختزل الّذي ترسمه الإيديولوجيا بما هي أمّحاء للتفاعل والتواصل. الآخر هنا وهم في مساره الإيديولوجي كإغلاق للواقع المعيّن وعليه. وصناعة الآخر تمارس بتراً للتّاريخ على صعيد الوعي التّاريخي. وعلى صعيد الحضور الثّقافي توطّد صناعة الآخر الانعزاليّة والاختزاليّة والقسر المفاهيمي.

ها هنا يكون الآخر حقيقة ـ لا وهماً ـ عندما يحاول صانع الوهم تجنّب طرف أقوى، وعندما يكون هذا الطرف مطالباً بدم ذلك الطّرف. ويرى الكاتب أخيراً أنَّ اختزال الآخر ونفيه تعبير عن موقف تاريخوي لا يمتلك قدرة على مواجهة الذّات؛ وإقصاء الآخر مردّه الخوف من رؤية الذّات في تفكّكها.

هل يحقّ لنا بعد أن نتساءل بسذاجة، ببساطة، بغباء، بتوق صادق للمعرفة، من المعنيّ بهذا الكلام؟ من هي الذّات ومن هو الآخر الوهم أو الحقيقة أو الصناعة؟ هل هو حقّاً النحن والغير بعامّة وفي

كلّ زمان ومكان؟ هل هو العرب والغرب (الأوروبي والأمريكي)؟ هل هو العرب وإسرائيل؟.

هذه الأسئلة تحدّد للآخر وللذّات الفضاء. وفي هذا الفضاء ليس سرّاً مَنْ «خلق» الآخر إزاء الأنا/ النحن/ الذّات. فالمستعمر المحضّر والمتحضّر هو من قال: نحن والغير، أنا / أنت، الذّات/ الآخر. وعلى أيّة حال فليس المهمّ من بدأ ومن تبع أو دافع عن نفسه. المهمّ أنّ الذّات المفكّكة تنفي الآخر وتختزله وتقصيه. أجل، وصناعة الآخر تبتر التّاريخ وتوطد الانعزاليّة والاختزاليّة.. أجل، وهذا هو شأن الآخر اليهودي ـ الصّهيوني. هذا هو شأن الثّقافة اليهوديّة ـ الصّهيونيّة مع الغريب/ الآخر. وهذا أيضاً كما يقول كثيرون من الفلاسفة الأوروبيين والأمريكيين واحد من مكامن الدّاء الكبير في الحضارة الكونيّة الأوروبيّة / الأمريكيّة الفاتنة بكلّ المعاني القاموسيّة وغير القاموسيّة للفتنة. والآن، إذا كان ثمّة غريب/ آخر جاء مدجّجاً بالسّلاح والتكنولوجيا والإيديولوجيا، وجاء مدجّجاً بالمناهج النقديّة الحديثة مثلاً، بالرّواية والشّعر والرّقص واللّوحة، ليبتر التّاريخ وينتزعني من بيتي في مشروع الزراعة في اللاّذقيّة، وتطاول الصّراع بيننا عشرين سنة أو ستّة وأربعين عاماً ـ أي أنّ البداية كانت عام ١٩٤٨ ـ أو قبل ذلك، منذ أن كان أبي نطفةً في صلب أبيه، أي قبل هرتزل أو قبل نابليون، فماذا أقول له؟ أأقول أنت لست «آخر» ولست غريباً، والتواصل الثقافي بين الشّعوب ينفي أن يكون أحدنا آخر؟.

* * *

في الفقرة الأخيرة ممّا كتبه ابراهيم محمود يرى الغزو الثقافي صناعةً داخليّةً قبل كلّ شيء. وعربيّاً يرى كلّ محاولة لربط الغزو الثّقافي بأعداء حقيقيين أو تتمّ صناعتهم، تعبيراً عن عجز بنيوي وتعتيماً على الحاضر. وبالتالي فالغزو الثّقافي هو ـ بحسب محمود ـ ابتكار أيديولوجي عربيّ في العمق، وتعبير عن أزمات اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة عميقة.

«الغزو الثّقافي» تعبير عن أزمات داخليّة عربيّة، لكنّه حقيقة قائمة كما أنّ العدوّ الإسرائيلي حقيقة قائمة أيضاً!

مرّة أخرى يرى المرء نفسه مدفوعاً لأن يردّد: أجل، ولكن! فالأنظمة والمنظومات السّياسيّة والثقافيّة، بمنتجها وإنتاجها، تعلّق الدّاخل على الخارج، تعتّم وتحرّف؛ والغزو الثّقافي تعبير عن أزمات عديدة عميقة. ولكنّ هذا الغزو حقيقة قائمة كما أنّ العدوّ حقيقة قائمة، إلاّ إذا انتهت المهلة الّتي على جوانحنا أن تخفق بعدها للصّديق اليانكي أو الإسرائيلي.

ماذا كانت تعني بالأمس «المنظّمة العالميّة لحرّيّة الثّقافة»؟ ماذا يعني اليوم مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائيّة، حتّى لو طبع النشيد الوطني والأغاني ونظم ندوة لتكريم مجلّةالآداب؟ وفي السينما، وفي آثار فلسطين المحتلّة، ماذا فعلت إسرائيل والصّهيونيّة؟

ينفي الكاتب أن تكون ثمّة إمكانيّة لفهم ما يسمّى بالغزو الثّقافي، إلاّ إذا انطلقنا من نفي اعتباره غزواً، كما يُسمّى تحت يافطات أيديولوجيّة مختلفة. ويردف أنْ ليست ثمّة إمكانيّة لفهم هذا الغزو الثّقافي إلاّ إذا حاولنا فهم الواقع أوّلاً، وإذ ذاك سيظهر الآخر كبشَ فداء للذّات.

من حسن الحظّ أنّ الكاتب يختم مشترطاً لفهم هذا الغزو أن نفهم حقيقة هذه النحن، داعياً إلى أن نبدأ من هنا. وهو في ذلك يقرّ أنّ الغزو ـ بالمفردة عينها ـ موجود مادامت هناك تفاوتات مختلفة بين المجتمعات. فلم إذن هذا العياء كلّه؟

أن نبدأ بالنّحن؛ أن نفهمها، أن نفهم الواقع، كمدخل لفهم الغزو الثّقافي، فهذا ما لا نماري فيه. ولكن كيف نشترط لفهمه نفي أن نعتبره غزواً؟ هل نعتبره صراعاً أم تلاقحاً أم ماذا؟ وكيف نصادر فهمَ النّحن والواقع ونقوده إلى مؤدّى واحد يكون الآخر كبش فداء فيه للذّات؟ أي آخر هذا الّذي جُعلت منه الذّاتُ كبشَ الفداء؟ أم أيّة ذات تلك الّتي جُعل منها الآخرُ كبشَ الفداء؟ هل مازال من المحتوم علينا، ولو إلى حين نرجو ألاّ يطول، أن يكون منّا من يبرئ الذّات ويلعن أوروبا وأمريكاوإسرائيل والعالمين أجمعين، وأن يكون منّا أيضاً من يبرئ الآخر ويدمي نفسه في عاشوراءَ إنسانيّةٍ وحضاريّة تقضّ فوكو في مضجعه، وتهدهد لعاموس عوز، حتّى لا أسمّي صهيونيّاً «آخر» روائيّاً وناقداً، أطلق الرّصاص عليّ في تلّة من تلال الجولان؟

* * *

الثّقافة وسلامـ «ـهم»

كانت الآداب من نشأتها ومازالت «الشأن القومي العربي» بجهارته وانكساراته، بغصّته والتباساته. ولقد مرّت بنا أصداء لذلك بين مطلع السّتّينات ومطلع السبعينات وأواخرها.

في الصميم من ذلك كانت وماتزال فلسطين والصّراع العربي الإسرائيلي. ولذلك كان من الطبيعي أن تفرد أعدادُ المجلّة الّتي أعقبت اتفاق غزّة ـ أريحا، لهذا الاتفاق ولتفاعلاته الثقافيّة، حيّزاً واسعاً. وهذا ما سنعكف على قراءته، ولكنْ ـ مرّة أخرى ـ ابتداءً من استعادةٍ، ولو خاطفة، لما كان في لحظة مبكرة وطامحة.

فعندما نالت الجزائر ا ستقلالَها، رأت الآداب أنّ قضيّة استعادة أرض فلسطين السليبة باتت تُطرح طرحاً قويّاً ومخلصاً مع انتصاب الجزائر دولةً عربيّة كبيرة. ومن جبهة التحرير الجزائريّة يرتسم الحلم بجبهة التحرير الفلسطينيّة. وتقول المجلّة: «إنّ قوى الثّورة الّتي

تفجّرت في الوطن العربي في السنوات العشر الماضية إنّما انطلقتْ في الدّرجة الأولى كردّ فعل عنيف لكارثة ضياع فلسطين. فمن الطبيعي حين يستتب الأمر لهذه القوى وتتمّ لها السيطرة أن توجّه قصارى جهدها لمحو العار»[٦].

من الطبيعي أن تفرد «الآداب»، وهي الّتي كانت ومازالتْ صوتَ الشّأن القومي العربي، أعداداً خاصّة باتّفاق غزّة/ أريحا.

وفي العدد نفسه، وبهذه اللّغة الّتي سبق أن رأيناها في عام ١٩٧٢ وفي عام ١٩٧٩، تعلن المجلّة عن العدد السنوي الممتاز للسنة التالية، والخاصّ بفلسطين: «فلسطين: الأرض المقدّسة الّتي يستعدّ العرب اليوم في جميع أقطارهم لاسترجاعها من الصهيونيّة المغتصبة، [فلسطين] الّتي طبعت النتاج الأدبي في السنوات الخمس عشرة الماضية، بطابعها المأساوي العنيف».

فإلى أيّ مآل آل ذلك كلّه في غضون ثلاثة عقود وحسب، من الجزائر إلى فلسطين وقوى الثّورة الّتي تفجّرت في الخمسينات، فالنتاج الأدبي واللّغة نفسها؟

* * *

لعلّ افتتاحيّة عدد الآداب الّذي أعقب اتّفاق غزّة ـ أريحا أن ترسم بعض الجواب، وهي تتأمّل الشأن القومي في لحظته الجديدة الأخطر. وقد أُهدي هذا العدد إلى أمّ سعد الّتي توفّيت في ١٠/٨/١٩٩٣. ومن لا يذكر صديقة غسّان كنفاني وبطلته الخالدة، على الرّغم من ضخّ النسيان الّذي يتفاقم في الذّاكرة القوميّة والثقافيّة، وعلى الرّغم من العلّل القائمة، من دون ضخّ، في هذه الذاكرة؟ لكنّها لفتة زاخرةٌ بالمعاني أن يُهدىٰ هذا العدد من الآداب، الّذي تعنون ملفّه بـ «ثقافة تواجه أخطار سياسة» إلى أمّ سعد.

تعلن هيئة تحرير المجلّة معارضتها الصّارخة لاتفاق غزّة ـ أريحا. وتأمل أن يشكّل الملفّ المذكور «وثيقة تستند إليها الجبهة الثقافيّة المناهضة للتّطبيع، وهي الجبهة الّتي ترغب المجلّة في أن ترى النّور قريباً وسط هذا الظّلام الكثيف».

أمّا سماح إدريس، وتحت العنوان الشّاحب «لن نبيعها»، فيجدّد الدّعوة إلى جبهة المواجهة، دون أن يستبعد خطر الاقتتال الدّاخلي، ورافضاً للتبريرات المخادعة للـ «مرحليّة» في العمل السّياسي، ومركّزاً على الخطر الاقتصادي للاتفاق، ومتسائلاً عن مدى تحالف المعارضة الفلسطينيّة والعربيّة مع الحركات الأصوليّة الإسلاميّة.

وجليّ أنّ التساؤل الأخير يشغل الكاتب الّذي يقرأ في المعارضة تفكّكها وتناحر فصائلها وافتقادها لمشروع مرحلي واحد، على الرّغم من ضخامتها

في العدد التالي انعقدت مائدة مستديرة حول اتفاق غزّة ـ أريحا. وعلى ملفّ هذه المائدة والملف السّابق، توالت تعقيبات. وقد رأينا قبل قليل ما كتب ابراهيم محمود في الغزو الثقافي. وسنرى الآن ما يتّصل بالمسار الثقافي لاتفاق غزّة ـ أريحا، ممّا قدّم عبد القادر صالح والمناقشات المتّصلة به[٧].

كيف يمكن لاتفاق ضئيل يشمل ٣٧٠ كلم و٨٠٠٠٠٠ نسمة أن يهدّد الثّقافة العربيّة على مساحة ١٢ مليون كلم و١٥٠ مليون نسمة؟

بهذا السّؤال ابتدأ عبد القادر صالح مداخلته، ملاحظاً تغييبَ الاتّفاق لأدنى إشارة إلى هويّة المنطقة، ولكلمة «عربي»، واستبدالها بالشّرق أوسطيّة. كما ساق ملاحظة هامّةً تتلخّص بتشكّل الثقافة العربيّة الرّاهنة ـ ومن المهمّ أن نضيف منذ نصف قرن على الأقل ـ في مصهر علاقة ضدّيّة تناحريّة مع الحركة الصهيونيّة، وضمن آليّات التحرّر التبعيّة، والتحقّق/ الاستلاب، والحداثة/ التحديث تجاه الغرب. وعلى الرّغم من أنّ الكاتب لم يذكر هنا «الآخر» ولا الغزو الثقافي، فإنّ هذه الملاحظة تضيء الفقرة السّابقة من هذه المداخلة أيما إضاءة. ويؤرّخ صالح بعد ذلك محاولاتِ التّطبيع قبل ١٩٤٨، وتجربةَ من تبقّى بعد ذلك في إسرائيل من النخبة، دون البحث عن مشجب.. وعلى ضوء ما ساقه عبد القادر صالح في صياغة النخبة الثقافيّة الشيوعيّة للخطاب الثقافي والسياسي المنظّر للتطبيع مع اليهود، وكذلك نفيه لأيّ دور للشيوعيّة في الحفاظ على الشخصيّة الفلسطينيّة تحت الاحتلال الأوّل قبل الستينات. أمّا بعد ذلك، فقد برز دور مثقّفي الصّمود، والحزب الشّيوعي أيضاً. ولكن إلى جانب ذلك كان ثمّة مطبعون في الدّاخل، ممّن أغفلتهم التغطيةُ العربيّة لأدب المقاومة في الداخل والخارج.

ويسجّل الكاتب أنّ الفدائي/ السياسي أكل المثقّف بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وأنّ المثقّف الفلسطيني بعد هذه الحرب ارتكب جريمة المشاركة في صناعة الانعزال الفلسطيني والهتاف «يا وحدنا». ويختم هذا المهاد الثقافي لاتفاق غزّة ـ أريحا بنماذج ممّا سبقه للتوّ، وممّا أعقبه للتوّ، نكتفي فيها بمن يمثّل من الدّاخل «أميل حبيبي» وبمن يمثّل من الخارج «سامي خشبة».

أمّا الأخير ـ وقد سمعنا ما كان يقوله منذ عشرين سنة ـ فيرى أنّ الاتفاق نتيجةٌ لوجود تيّار فكري فاعل على السّاحة العربيّة، وهو «يمكن أن يؤدّي إلى انفتاح على المستوى الحضاري من أجل إثراء الثقافة الإنسانيّة، إلى عودة اليهودي إلى مساره الحضاري المشترك مع

(٦) السنة ١١، العدد العاشر لعام ١٩٦٣.

(٧) السنة ٤١، العدد ١١ لعام ١٩٩٣.

العرب، ونبذ الصهيونيّة كفكر غريب على اليهود. ونحن قادرون على امتصاص الغزو ثقافيّاً».

من المؤكّد أنّ هذا الاتفاق، وقبله اتفاق كامب ديفيد وما تلا وسيتلو من اتفاقات، لم يهبط من علياء، بل هو محصلة واقعيّة لعناصر جمّة، ومنها تيّار فكري فاعل وماهد. ولكنّ السّؤال عن طبيعة هذا اليهودي الّذي قدم يرطن بالرّوسيّة مثلاً، قبل مائة عام أو قبل مائة يوم، هذا السّؤال يغيب والأوهام تقلب الحقائق: فإذا باليهودي العربي ذي المسار الحضاري الواحد حتّى هجرته أو تهجيره يتساوى مع اليهودي البولندي أو الأثيوبي؛ وإذا باليهودي ينبذ الصهيونيّة، فيما شطر من العرب ينبذ الصهيونيّة قبل الأمم المتّحدة؛ وإذا بسامي خشبة قبل عشرين سنة هو نفسه سامي خشبة الّذي يقرأ في اتفاق غزّة ـ أريحا انفتاحاً حضاريّاً وإثراء للثّقافة الإنسانيّة.

لكنّ الإشكاليّة الكبرى تأتي مع إميل حبيبي، وهو واحدٌ من الأشخاص الّذين يمثّل عبد القادر صالح على تمهيدهم للاتّفاق. فإميل حبيبي يشخّص بحقّ جهل العرب الفاضح في فهم العدوّ، ويلحّ في آن على أنسنته، وعلى التبادل الثّقافي الخصيب معه داعياً إلى الانتماء إلى العالميّة، ومسفّهاً القوميّة العربيّة.

ها هنا تقوم واحدة من الحالات الأنموذجيّة للتناقض بين المبدع ومبدعاته. فإميل حبيبي المعروف كسياسي، وكمواطن فلسطيني فإسرائيلي، هو نفسه من تنقض إبداعاته ما ساق قبل اتّفاق غزّة ـ أريحا وبعده في الاتفاق وفي مسار الصراع الإسرائيلي، ماضياً وراهناً ومستقبلاً.

* * *

في التعقيب، يردّ أحمد برقاوي[٨] على السّؤال الّذي ابتدأ به عبد القادر صالح متسائلاً «لماذا نخشى على الثّقافة العربيّة ـ الّتي هي ثقافة ملايين من البشر وذات تاريخ طويل ـ من ثقافة ضيّقة؟ لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟ أليس الأَوْلى أن تخشى الثّقافة اليهوديّة ـ الصهيونيّة من اختراق الثّقافة العربيّة؟»

ولقد سبق لي أن سمعت مثل هذا الردّ ـ التساؤلات من إميل حبيبي نفسه في النّدوة الّتي شاركنا فيها جابر عصفور وعبد الوهاب المسيري ورضوى عاشور وحنّا مينة، في القاهرة مطلع هذا العام. وقبل قليل رأينا سامي خشبة يقرّر مقدرتنا على امتصاص الغزو الثّقافي. وقد قرّر هاني حبيب في تعقيب آخر على عبد القادر صالح أنّ الميزان مع العدوّ يميل بدون حدود لمصلحتنا في الجانب الثّقافي والحضاري. وهو ـ حبيب ـ يحذّر من أن يقودنا ذلك إلى الاطمئنان، ويحذّر من الاستهانة بقدرة إسرائيل على توظيف كلّ إمكاناتها الهائلة للتّأثير في ثقافتنا وحضارتنا في محاولة لكسر هذا الشّرخ في ميزان القوى معها.

من التّشديد على هذه التحذيرات نعود إلى التباس التساؤلات السّابقة. فمن جهة تحفّ بها شبحيّة العدوّ المتوارثة، والجهل به، والهلع المزمن، والانغلاق، كما تحفّ بها العصمة، والغفلة عن لغة هذا العصر الّتي تصغّر الكبير وتكبّر الصغير، كلّ بقدر ما يتملك منها. ومن جهة أخرى فالأمر كلّه يقوم الآن في لحظة محدّدة، سياسيّة واقتصاديّة كما هي ثقافيّة، وتلك هي لحظة سلام بعينه، وموازين قوى بعينها، وعيش صراعي بعينه. وبالتالي فهل تبرّر عصمتُنا الثقافيّة أن نقول نعم لسلام كهذا؟

بالطّبع، لا ينتظر أصحاب القرار موافقتنا. وفي حالة الفصام بين الثّقافة والمثقّف وبين «الشّارع» قد لا يكون هذا الشّارع ينتظر هو الآخر موافقتنا، لا المعارض منه ولا المؤيّد. ولكن الثقافة ليست لهاث الآني، والثّقافة تحيل أيضاً على نبض التّاريخ والاستراتيجيّة والحلم، بأكثر ممّا تشتغل في الرّاهن أو بقدره. وهنا تأتي قراءة الثّقة بثقافة هجينة أو ضيّقة أو عنصريّة كالثّقافة اليهوديّة ـ الصهيونيّة، وتأتي قراءة الثّقة بثقافة تعدّديّة أو تاريخيّة كالثّقافة العربيّة. هنا تأتي أيضاً قراءة الخطاب الهلوع والخطاب النرجسي وقراءة النبض التّاريخي والموقف.

أليس جديراً بنا أن نفكّر بدور الأنظمة والصهيونيّة والاستعمار في تحقيق اختراق الوعي المقاوم منذ عقود؟

ومن الحقّ ـ كما ذهب أحمد البرقاوي ـ أن ليس باستطاعتنا مواجهة هذا الواقع بسهولة وسرعة. كما أنّ الاستعجال في طرح البدائل الّتي لا تملك أسس تحقّقها أمرٌ لا معنى له. لكنّ المستقبل، في واحد من تعبيراته، هو حلم في الحاضر. وفي مثل حاضرنا، فالحوار الطّويل والعقل الهادئ هما من الأمور الّتي نحتاجها. وأهمّيّة أن نكون فاعلين لا تجعل بلا معنى أن نكون مبشرين، ولكن، بالتأكيد، لا مبشرين وحسب. ولست أدري: هل هو تجلّ آخر لتبرئة الآخر وإفراد الذّات بكلّ مسؤوليّة ـ ممّا رأينا لدى ابراهيم محمود ـ ذلك الّذي ذهب إليه أحمد برقاوي في اختراق الوعي المقاوم والمستمرّ منذ عقدين لا بالصهيونيّة والاستعمار، بل بالأنظمة القطريّة التابعة؟ فهل منظّمة التحرير الفلسطينيّة من هذه الأنظمة؟ وسواء أكانت كذلك أم لا، أفليس جديراً بأن نفكّر بدور الأنظمة والصهيونيّة والاستعمار معاً في تحقيق ذلك الاختراق، لا منذ عقدين وحسب، بل منذ المرحومين أصفر وفيصل، منذ **المقطّم والنّفير ولسان العرب** وسوى ذلك من صحافة وساسة واقتصاديين ومثقّفين..؟.

* * *

من التعقيبات الهامّة الأخرى على ملفّ غزّة ـ أريحا يهمّنا أخيراً أن

(٨) المصدر السابق.

نتوقّف عند تعقيبين. الأوّل لزهير هواري[٩]، ويُلحظ فيه استئثارُ الصّوت الواحد رغم الخلاف في النبرة، وندرةُ القراءة النقديّة المتماسكة لمسار المنطقة العربيّة. ويشبّه هواري الحملة في **الآداب** على قيادة منظّمة التحرير الفلسطينيّة بالحملة عليها في أعقاب حرب الخليج: حملة تدّعي القراءة عن اليسار، وتصبّ الماء في طاحونة اليمين الأمريكي... وهكذا، بحسبه، ومع تبخّر المشروع القومي، يتمّ اعتماد الطهرانيّة. وأمّا الاتفاق نفسه فهو ـ في رأيه ـ في خانة الإنجاز المعلّق...[*]

أمّا التعقيب الثاني لمصطفى خضر[١٠] فيعود بنا إلى حديث «الآخر والذّات»، حيث تلغي الذّات ذاتها أمام قوّة حضور الآخر وتتحوّل إلى مجرّد موضوع، وينحطّ بها الآخر إلى موضوع بعد أن انحطّت بذاتها، لينتفي أخيراً جدل الذّات مع الموضوع.

كما يعود بنا مصطفى خضر إلى الغزو الثّقافي، ليرى الأقنعة الثّقافيّة الشّائعة الّتي تجد في ذلك الغزو تواصلاً، وتجعل من التبعيّة تفاعلاً، وتتكيّف معهما بأسلوبها الخاص، واهمةً أنّها تلحق بالعالم وهي تلتحق به، وتمتلك أدوات ذلك الغزو، فتخدم تعميم أنموذجه، دون أن تعيه، وتشيعه بدلاً من أن تجابهه. وقد تنظّر الآن أو فيما بعد للتطبيع الثّقافي كحوار عادل يبيّنه موقف حضاري من الآخر الّذي تتجاهل أهدافه، لجهل هويّتها الثّقافيّة.

ربّما كان هذا التعقيب خيرَ ما يضفر الفقرات السّابقة جميعاً، لا بالقضايا الّتي أثيرت فقط، بل بلغتها أيضاً، وبموقع ذلك في مجلّة **كالآداب**، وفي لحظة كالّتي نعيش، وحيث يدعو مصطفى خضر ببساطة وجهارة: «لتكنْ عودة إلى الموضوع العربي الكبير بمبادئه الكبرى وأهدافه الكبرى». أليس ذلك صوت **الآداب** منذ نشأتها إلى هذا اليوم؟

* * *

اللّيلة الأخيرة في القرن العشرين

هذا عنوان قصّة لاستيفان هيم من مجموعة قصص ألمانيّة لمجموعة كتّاب، قدّم لها نبيل فرج عرضاً في **الآداب** ذات يوم[١١].

زمن قصّة هيم هو ليلة ١٩٩٩/١٢/٣١، وترسم القصّة عالماً تتحكّم فيه الآلة، ويسوده الحاسوب، وتسمه سرعةُ الاتصالات. وعلى النّقيض من الرؤية المتشائمة لأدباء الرأسماليّة وكلماتها، تؤكّد احتفالاتُ رأس السّنة بقاءَ العاطفة الإنسانيّة.

تشيد القصّة بالأحداث الثوريّة الخالدة للقرن العشرين، ومنها قيام الاتّحاد السوفياتي والجمهوريّة العربيّة المتّحدة. وتندّد بالبلدان الّتي تحتكر فيها قلّة من الأغنياء كلّ شيء. كما تشخّص في الولايات المتّحدة مصدر خطرٍ رئيسي على عالمنا.

أهي أيضاً تلك اللّغة الّتي قرأناها في **الآداب** ذات يوم؟ أهو خطل هذا النّوع من القصص المستقبلي؟ لقد تحكّمت الآلة وساد الحاسوب وجعلت الاتصالاتُ العالم قَريتَها الصغيرة. ولقد انهار الاتحاد السوفياتي ونُسيت الجمهوريّة العربيّة المتحدة، ومازال النّاس يحتلفون برأس السنة، ومازالت الولايات المتحدة مصدر الخطر الرئيسي على عالمنا، وصدق استيفان هيم وخاب، فلن أقول: كذب.

وفي سياق قصّةٍ وواقع، رفرف العلمُ الفلسطيني في غزّة وأريحا، ورفرف العلم الإسرائيلي في كذا عاصمة عربيّة ـ هل يسبق الواقع نشر هذه السّطور؟

في سياق قصّة وواقع، تنطوي فلسطين في حنايا، وتنتشر إسرائيل في حنايا، وتكتب مي صايغ:

«للنشيد الطويل الّذي يفرغ الآن
رجع كما النّزف...»
وتكتب:
«أمزّق وعداً قديماً
قبيل انتشار الجيوش الّتي
سوف تغتال أسوارنا في الأزقّة
إذ تحفظ الأمن للفاتحين»
وتكتب:
«عمّا قليل يجفّ الكلام
وتيبس في قلبنا الذكريات
لننسىٰ بأنّ «اتّفاق السّلام»
الوداع الأخير لتاريخنا نجمة نجمة
في مدار العصور»[١٢].

ومن القصّة إلى القصيدة إلى ما تقدّمهما من حوار، تجأر الذّبيحة. تنطوي لحظةٌ وتكون لحظة، وتنبق اللّحظاتُ جميعاً. تطلع الأطيافُ والحقائقُ في مجلّة **الآداب**، في تكريم، لا في تأبين، في حياة، لا في موت، في عيش يتقاصر حتّى ليدنو من الأربعين، ويتطاول حتّى يتقاصر عنه العدّ، وقد غدا عيش الثّقافة والسّلام. ولكنْ: أيّة ثقافة، وأيُّ سلام؟

سوريا

(*) سقطت من الطبع جملة واحدة أو أكثر، في نقد زهير هوّاري (**الآداب**).

(٩) **الآداب**، السنة ٤١، العدد ١١ لعام ١٩٩٣.

(١٠) **الآداب**، السنة ٤٢، العدد ١ ـ ٢ لعام ١٩٩٤.

(١١) السنة ١٩، العدد ٣ لعام ١٩٦٩.

(١٢) من قصيدتها. «للنشيد الطويل»، **الآداب**، السنة ٤١، العدد ١١ لعام ١٩٩٣.